التربية ومفهوم التعايش الثقافي –في رهانات تربية مستقبلية–
(مالك بن نبي أنموذجا)

أ/ بغداد باي محمد

باحث جزائري، وأستاذ الفلسفة بالمدرسة الدولية الجزائرية(مالك بن نبي) بفرنسا.

مقدمة:

كثيرون هم الذين تحدثوا عن الحضارة وعن التواصل الحضاري كبدائل للصراع والهيمنة الحضارية والثقافية، لكن قليلين من تفطنوا إلى أن التواصل الحضاري تربية ثقافية تنطلق من بناء الهوية الحضارية للفرد وتشبعه بها، وقليلون من ربط فكرة التواصل الحضاري بفكرة التربية ذاتها كعملية تنشئة وتثقيف، ومن ثم يصير مشروطا ومرهونا كل تواصل حضاري وحوار ثقافي بمدى القيام بتلك المهمة وإنجازها في أحسن صورة. حينما ندرك أن التربية تسهم في بناء الفرد كهوية حضارية وكمشروع للتواصل الحضاري مع الآخر، وبالتالي، مهمتها تتجاوز الإعداد المعرفي والتقني، فإننا سندرك أهميتها لكل حوار ثقافي ولكل تواصل حضاري. فالوصول إلى الإحترام المتبادل وإرساء قيم الحوار الحضاري والثقافي وإحترام الآخر ثقافيا وعقيدة يمر حتما عبر إرساء قواعد تربية تواصلية حضارية تبدأ من بناء هوية حضارية للفرد وإنتهاء إلى بناء تواصل حضاري يرتسم عبر دائرة الوعي الجماعي الواسعة. فالحديث عن التربية "النوعية" لمالك بن نبي في تصوره لعلاقة نوع التربية بالمجتمع هي تربية تقف على هذه الأسس وهي في الوقت ذاته غايتها إيمانا منه بأن الإنسان كائن ثقافي وحضاري يمتد وجوده وثقافته إلى أبعد من حدوده الجغرافية. فهي تربية لا ترتبط بتزويد أفراد المجتمع بمعارف علمية بل باتجاهات حضارية تواصلية تحقيقا للهوية الحضارية للفرد وتواصله الحضاري الذي تتجلى فيه أصالته الحضارية. فالهدف الأخير من هذه التربية النوعية هو إعداد المجتمع للإلتفاف حول هويته الحضارية والإنفتاح الحضاري على الآخر. إن التواصل الحضاري ليس حدثا تاريخيا معزولا، ولا هو ظاهرة عابرة ولا مرتهن معيشي أو رد فعل إجتماعي، بل هو في أساسه وعي حضاري يرتبط إكتسابه بالتربية الثقافية المرافقة لنشاطات الفرد الإجتماعية والثقافية. وكل مجهودات في هذا الصدد ستذهب سدى إذا لم نجعل من التربية وسيلة للتواصل الحضاري أو لم نؤسس للحوار أو التواصل الحضاري إنطلاقا من مفهومنا للتربية.

إنطلاقا من فهم الإشكاليات الثقافية والحضارية التي يثيرها مشروع مالك بن نبي كإهتمامه بشخصية الفرد المسلم وثقافته وحضارته، وإهتمامه بماضيه وبمستقبله، والكشف عن مقومات النكوص اللاواعية في سلوكاته، ومقومات الحضارة الكامنة في تراثه وثقافته، وفي طاقاته الذاتية، وإهتمامه بالتغيير وبضرورة الأخذ بأسبابه

وتفادي الوقوع فريسة للأمم والقيم الثقافية الغازية لثقافة المجتمع، وإهتمامه بالذات المسلمة وتميزها وتفاعلها مع الآخر المختلف عنها ثقافيا وعقائديا، وإهتمامه بالتربية لكونها أداة لنشر ولبناء الهوية الحضارية للفرد وبناء الوعي الحضاري للمجتمع، وإيمانه العميق بالنماذج التاريخية الحضارية مجسدة في الحضارات الأسيوية والإسلامية وغيرها،.....، حينما ندرك كل ذلك بعمق فكري، ندرك، حينها، أن المفكر مالك بن نبي هو أحد مؤسسي فكرة الحوار الحضاري والثقافي في الفكر الحديث، فما هي منطلقات هذا التواصل؟ كيف يمكن توظيف التراث الفكري والثقافي في سبيل إقامة حوار وتواصل حضاري مع الغير وبين المجتمعات والامم؟ علام تستند أمة ما في دفاعها عن أصالتها الحضارية وتراثها الثقافي؟ كيف تبني وتعزز التربية فكرة التواصل كقيمة فردية وثقافية؟ ولماذا يبرز لنا مالك بن نبي كقامة فكرية مؤسسة لمشروع مجتمع ولا يبرز لنا قامة فكرية من دعاة التعايش الثقافي؟

1– توضيح منهجي:

قد يتساءل القارئ عن علاقة مفهوم التربية بمفهوم التعايش الثقافي رغم أن الموضوع يركز بشكل أساسي على التعايش الثقافي، بالإضافة إلى ذلك يبدوان كموضوعين مستقلين بالبحث. فيتبادر إلى ذهن القارئ التساؤل المنهجي التالي: هل ثمة علاقة بين التربية والتعايش الثقافي؟

لكن المهتم بالقضايا الفكرية لمالك بن نبي، وخاصة، مشكلة الثقافة سوف لا تثير تلك العلاقة لديه ذلك الإستيضاح المنهجي، لأن إشكالية التربية أو مفهوم التربية كآلية ترتبط بكل الإشكالات الإجتماعية الثقافية والحضارية لمجتمع ما، وذلك في إطار نظرية مالك بن نبي "العامة" في الثقافة إن صح التعبير. وسيتبدد ولا شك، ذلك القلق المعرفي، حين ندرك أن وجود التربية كوسيلة لا غنى عنها لأية ثقافة تقوم بعملية التركيب الأساسية في بناء الفرد وفي بناء العلاقات الإجتماعية، ومن ثم الإنسانية. وسوف تتوضح

وتتحدد منهجية البحث أكثر حين نضع في إعتبارنا أن التربية داخل مشروع مالك بن نبي الفكري، أو إن صح التعبير، داخل النظرية العامة في الثقافة عند مالك بن نبي، هي مجرد وسيلة لغاية وليست هي الغاية، لأن الغاية داخل تلك نظرية هي إيجاد **"التركيب الثقافي"** المفضي إلى شكل الحضارة، وبالتالي، فحين نركز الحديث عن الثقافة وعن التركيب للقيم الثقافية، وعن الحضارة كشكل من أشكال الثقافة، فإننا نفكر بشكل ضمني في التربية كوسيلة من وسائل تحقيق ذلك التركيب والمساهمة في إيجاد ذلك الشكل. فلا توجد التربية كوسيلة متميزة عن ذلك المضمون الثقافي والحضاري. فهي كما وصفها مالك بن نبي "عملية تثقيف مستمرة". وحتى لا يصبح خطؤنا منهجيا بارزا وصارخا حين نتحدث عن عمد أو غير عمد، عن التربية عند مالك بن نبي كغاية أو كنظرية في ذاتها، فمن الممكن أن نجعلها مرادفا لكل وسيلة تحقيق ضمن سياق التركيب الثقافي المفضي إلى الشكل الحضاري فتصير التربية وسيلة والثقافة محتوى والحضارة شكلا. فتصبح التربية وسيلة ترتبط بأهداف قصوى تشترطها الثقافة. وإذا ما بقينا في إطار التوصيف التربوي للنظرية "العامة" للثقافة عند مالك بن نبي، فسنجعل من الثقافة مضمونا للوسيلة(التربية) ومن الحضارة شكلا متحققا لتلك العملية التاريخية الإجتماعية. بسب هذه الإيضاحات أو الضرورات المنهجية لا يمكننا أن نغيب مفهوم التربية عند حديثنا عن مفهوم التعايش الثقافي بإعتباره شكلا من أشكال الثقافة، أو هو شكلها الأسمى أو الأقصى كما سنرى ذلك لا حقا. لذلك ليس من باب التجاوز أعدم التدقيق المنهجي أن نضمن بحثنا المتعلق بمفهوم التعايش الثقافي مفهوم التربية للإعتبارات المنهجية السالفة الذكر. ويمكننا أن نلجأ إلى **تأصيلات منهجية كثيرة** لذلك من خلال العديد من مؤلفات مالك بن نبي، والتي توضحت معالمها بشكل بارز ودقيق في "شروط النهضة" و"مشكلة الثقافة " خاصة، والتي توزعت أيضا على مختلف كتبه الأخرى.

ونحن نريد أن ننهي هذا التوضيح المنهجي حول مفهوم التربية بتوضيح آخر، يتعلق بالتعايش الثقافي بإعتباره طرفا في العلاقة التي أضطررنا إلى توضيحها، وإن بدا هذا التوضيح أقل إلحاحا من الأول لإعتبارات عديدة أقلها قد يبدو للبعض أن مفهوم التعايش الثقافي بات موضوعا مسقلا من البحث له مرجعياته الفكرية، وإن كان هذا موقف القارئ من مفهوم التعايش في علاقته بمفهوم التربية، وإن بدا ان الإستيضاح الأول هو ما شد إنتباهه، فإن بحثنا هو أشد ما يكون، وبإلحاح، إلى هذا الإستيضاح على الأقل تبرير وتأصيلا لنتائجه وآفاقه ولوحدته المنهجية في إرتباطه بالوسيلة(التربية) والمحتوى(الثقافة) والشكل(الحضارة) فيما أسميناه بالنظرية "العامة في الثقافة" عند مالك بن نبي. ذلك انه لا يمكننا أن ندفع بالأهداف القصوى في مفهوم مالك بن نبي للتربية، أو نحيط برهاناته الكبرى والقصوى في إعتقادنا، إلا بربطها بالرهانات الأساسية للنظرية العامة في الثقافة عند مالك بن نبي كعملية مركبة. وسيكون من الواضح، في إعتقادنا، أن الرهانات الكبرى للنظرية العامة في الثقافة عند مالك بن نبي، هي خلق فرد–إنسان يتعايش ويشارك ويتواصل في إطار مشترك من القيم مع أفراد آخرين من ثقافته ذاتها، أو من ثقافة غير ثقافته، تحقيقا للمجتمع الواحد أو للمجتمع الإنساني. وبالتالي، تصبح وظيفة وغاية النظرية العامة للثقافة عند مالك بن نبي هي: تركيب لمجموعة من القيم المشتركة بين الأفراد في مجتمع واحد، أو بين مجتمعات مختلفة، وبالتالي، يكون ذلك ذروة نظرية مالك بن نبي العامة في الثقافة كونها محتوى يتخذ من التربية وسيلته ومن الحضارة شكله، هو بناء إنسان الحضارة(الإنسان المتحضر). ومن هذا المنطلق يغدو إيجاد التواصل مع **الآخر** المختلف ثقافيا هو الرهان الأساسي لنظرية مالك بن نبي من خلال وسائلها التربوية والتعليمية، ويصبح الرهان الصعب بعد الرهان الأول المتمثل في إيجاد التواصل مع **الذات**(التواصل بين أفراد المجتمع الواحد). هو رهان صعب لأنه مرتبط بإيجاد "تركيب ثقافي"بين أفراد المجتمعات المختلفة في طرقها ووسائلها الثقافية. تركيب يُفضي إلى نوع من الثقافة ومن التعايش والتواصل الحضاريين. إن التعايش الثقافي وأسلوبه هو نمو معرفي وتاريخي طبيعي لنظرية مالك بن نبي في الثقافة.

2– سؤال "الآخر" في "النظرية العامة للثقافة" لمالك بن نبي:

إن كل كتابات مالك بن نبي يخيم عليها طيف **الآخر** المختلف عنا ثقافيا وفكريا وذلك من خلال الإهتمام بتقديم **ذاتنا** حضاريا لذلك الآخر. إن الحوار بين الذات والآخر ترتسم معالمه الحضارية والتواصلية من خلال هذه الجدلية الفاعلة. فالتواصل الحقيقي مع الآخر يبدأ فعليا من خلال تقديم **ذاتنا الثقافية والحضارية** إليه ومن ثم بناء التواصل المشترك من خلال القيم الإنسانية والثقافية المشتركة. فرهان التواصل الحضاري أو التعايش الثقافي مشروط **بالصورة التي تكون عليها ثقافتنا في مرحلتها التاريخية الراهنة** التي يُبنى عليها تواصل أو تعايش فعال أو بالمقابل يُبنى عليها تواصل وتعايش منقوص أو سلبي. ومن هنا نفهم أن التعايش الثقافي التاريخي والفعال مع الآخر يبدأ ببناء الذات، أي بناء التواصل بين ذوات المجتمع الواحد، تحقيقا لشكل

الثقافة في أسمى علاقاتها، وسوف لن تنجح أية ثقافة، وفقا لمنظور نظرية مالك بن نبي، في إيجاد تواصل أو تعايش ثقافي حقيقي مع الآخر، في ظل غياب تحقق شكل التواصل الأولي لديها، وهو هنا تحقق شكل الثقافة داخليا، كون أن مرحلة التعايش الثقافي مع الآخر، في سلم الأولوية أو في سلم الإطراد التاريخ والإجتماعي لأشكال الثقافة يقع بعد تحقق شكلها الداخلي والذي وصفناه بالأولي، كما سنرى ذلك لاحقا. حتى لا يكون حكما دون تحليل من طرفنا.

لأن التعايش الثقافي لا يحدث إلا في شكله الحضاري، بمعنى أن التعايش هو تحقق لقيم ثقافية مشتركة، وهي الحال التي تكون عليها الثقافة حضارة، أي شكل، لأن الحضارة في تحققها التام ذاك هي الثقافة في صورة تحققها. أما إذا ما انعدم ذلك فلم تتحقق صورة ثقافية للتعايش أو شكلا حضاريا للتعايش الثقافي، فستبقى الثقافة في حالة سماها مالك بن نبي "لا ثقافة"، وتبقى تبحث عن تحقيق شكلها الأسمى الذي هو شكل الحضارة. وهذا هو جوهر البحث في مفهوم التعايش الثقافي في نظرية مالك بن نبي.

إذن، فسؤال الآخر في نظرية مالك بن نبي مطروح بقوة، ويقع في صميم مشكلة من مشكلات الثقافة ونعني بها **مشكلة التعايش الثقافي** من خلال التأسيسات المنهجية لمشكلة الثقافة ذاتها، بمعنى أنها جزئية من جزئيات نظرية الثقافة.

3– التعايش الثقافي: معالم على الطريق...

لقد وعى مالك بن نبي أن مسألة "التعايش الثقافي" تعتبر مشكلة من مشكلات الثقافة، لأنها في صميمها مشكلة من المشكلات الإتصالية للثقافة ذاتها. فالمشكلات الإتصالية للثقافة تتحدد، أكثر ما تتحدد، خارج الحدود الجغرافية لثقافة ما، إن صح التعبير، أي في التواصل مع مجتمع آخر يشترك معه في بعض القيم الثقافية أو يختلف معه في بعض القيم الثقافية الأساسية، وخاصة أثناء العجز عن إيجاد تركيب ثقافي لنوع من التعايش فكما يؤكد مالك بن نبي أن التعايش هو ذلك التركيب ذاته(التركيب=التعايش).[1] فكل تعايش مرهون بتركيب ثقافي. ولقد أشار مالك بن نبي إلى مسألة "نشاط ثقافة ما على حدودها." [2] من أجل إيجاد ذلك النوع من التركيب او التعايش. وهذه المسألة تكشف لنا بوضوح، على سبيل المثال، ما يعيشه المجتمع الجزائري ثقافيا على ضوء المشكلات الأمنية التي توجد على حدوده، لقد طرحت الأخيرة مشكلات ثقافية حدودية إن صح التعبير عكستها من جهة أخرى الهجرة غير الشرعية للأفارقة.. فغياب هذا التركيب كبديل للوضع الراهن المتصف بالقلق والتوتر يعكس مظهرا من مظاهر الأزمة الثقافية(**) التي تحدث عنها مالك بن نبي، لأنها مشكلة إتصالية متعلقة بالثقافة، وهي الأزمة ذاتها التي تصير المجتمع"عاجزا عن حل مشكلاته داخل حدوده، وعن مواجهة مشكلات الجوار على حدوده، وبصورة أعم لا يستطيع التعايش دون عقد نفسية تعرض شخصيته للتلف أو كرامته للمهانة، بينما أصبح التعايش ضرورة حتمية في عالم تهيمن فيه التكنولوجية التي فرضت على كل مجتمع وجود الآخرين."[3] لقد ركز مالك بن نبي على مسألة الحدود الجغرافية لثقافة مجتمع ما، وعن التأثيرات الثقافية والتبادلات المتاخمة والتي تحدث بفعل الزمن والأحداث التاريخية لما لها من أهمية غير أنه يميزها عن التعايش الثقافي الذي يحدث عن وجود الإرادة الإنسانية والذي يعتبره مشروعا حضاريا إنسانيا يسير نحو الوحدة(التركيب) والتعايش الإنساني على المدى البعيد.[4] وتبرز هذه الفكرة بجلاء أكبر وببعد كوني وحضاري وإنساني اكبر مع الأحداث الكونية التي تجعل، كما يقول مالك بن نبي، الثقافة " تتحدد اخلاقيا وتاريخيا داخل تخطيط عالمي، لأن المنابع التي سوف تستقي منها أفكارها ومشاعرها، والقضايا التي سوف تتبناها، والإستفزازات التي سوف تستجيب لها، والأعمال التي سوف تقوم بها، لا تستطيع هذه كلها أن تجمع في أرض الوطن."[5] لقد برز البعد الإتصالي بشكل أساسي بعد الحربين العالميتين"حين أنشأت بصورة ما مجالا ثالثا، هو المجال الذي يتحتم فيه على كل ثقافة ادركت حقيقة مشكلاتها الداخلية والإتصالية، أن تدرك حقيقة مشكلات أخرى على مستوى عالمي." [6] "إنه من الواضح أن الضمير الإنساني في القرن العشرين لم يعد يتكون في إطار الوطن أوالإقليم، هذا مع إعترافنا بأن أرض المولد التي يعيش عليها الناس تمدهم بالبواعث الحقيقية لمواقفهم العميقة، غير أن الضمير الإنساني في القرن العشرين إنما يتكون على ضوء الحوادث العالمية التي لا يستطيع ان يتخلص من تبعاتها، فإن مصير أي جماعة إنسانية يتحدد جزء منه خارج حدودها الجغرافية." [7]"وهكذا نرى القرن العشرين يضع قضاياه في مواجهة ما خلفه القرن التاسع عشر من مناقضات الإستعمار، فنحن نعيش هذا الصراع اليوم في جميع أشكاله في انتظار ساعة التركيب التي تصهر النزعتين في السلام العالمي." [8] وإذا كانت مشكلة التعايش الثقافي تبرز كحاجة إنسانية وحضارية بأكثر إلحاح، فإنما تكون كذلك نتيجة لوعي المشكلات الإتصالية للثقافة ذاتها المنبعث من مفهوم الثقافة كـ**"تركيب"** للقيم الثقافية في النفوس والإرادات والعلاقات، ومن كون الثقافة تركيبا يتجه نحو شكل أسمى هو شكل التعايش الثقافي، ومن هنا يبرز التعايش الثقافي من خلال نظرية الثقافة عند مالك بن نبي، كإطراد لشكل الثقافة قبل أن يكون ضرورة تاريخية تفرضها الظروف والأحداث الإنسانية والأزمات

التاريخية التي يعيشها المجتمع الإنساني. والتعايش سوف لن يظهر هنا كضرورة تاريخية وحضارية إلا لأن الثقافة لم تخلق أو لم تجد مبرراتها الكافية في إطرادها بإعتبارها شكلا من أشكال التعايش الثقافي يسير من دائرة المحلية إلى دائرة العالمية أو الإنسانية في إطار دائما ما هو ثقافي مشترك بين المجتمعات الإنسانية. إذن، هذا المفهوم الخاص بالتعايش الثقافي يأخذ مدلوله الحقيقي من مدلول نظرية الثقافة عند مالك بن نبي، فلقد وعى الأخير ان التركيب الثقافي داخل المجتمع الواحد لا يستنفد نظرية الثقافة كتركيب للقيم الثقافية بحكم حركية الثقافة ذاتها، وبحكم حركية التاريخ الإجتماعي والإنساني، وهو ما صنفه مالك بن نبي تحت طائلة"الوعي بالمشكلات الداخلية والإتصالية للثقافة". فالتعايش يبرز كضرورة ملحة من ضرورات الثقافة في إمتدادها وتوسعها وتعايشها قبل ان يصبح ضرورة تاريخية وإجتماعية، وهو مشكلة إتصالية قبل أن يكون مشكلة تاريخية وهذا هو الوصف الذي قدمه مالك بن نبي للثقافة في لحظتها تلك.

لقد بدأ مشكل التعايش يبرز داخل الكتابات المتعلقة بنظرية الثقافة عند مالك بن نبي، وأصبح الحديث عن التعايش الثقافي كوظيفة من وظائف الثقافة، وإنطلاقا من إدراك مالك بن نبي لأهمية ذلك العمل المزدوج للثقافة "فهي أن تسجل أسلوب الحياة في مجتمع معين وسلوك أفراده، وهي في الأخير ينبغي أن تخلق إمكانيات إتصال وتعاون بين المجتمعات المختلفة."[9] بل صار الحديث عن التعايش، ومن ثم عن العالمية، بإطراد ظاهرة الثقافة، وبإطرادها التاريخي والإجتماعي وصارت عالمية الثقافة مشكلة ثقافية، وهو يجد لها الجواب في كتابه مشكلة الثقافة، لكن أين؟ الجواب هو: في ذلك الجزء المعنون بـ"ما ضد الثقافة" وهو بصدد مراجعة بعض الأفكار المتعلقة بمهمة الثقافة الإفريقية والإنسان الإفريقي." يقول مالك بن نبي "فالثقافة تستطيع أن تمنحنا اللحظات الممتعة ...ولكن دورها الأساسي ان تعلمنا العيش المشترك والعمل المشترك، وخاصة الكفاح المشترك. هذه هي وظيفتها الإجتماعية الأساسية." [10] فلا بد أن تكون الثقافة نمطا من التواصل والتعايش، وأن تكون"عالمية تتحسن وتنفتح لمصلحة مجموعة أكبر هي الإنسانية"[11] الأمر الذي يجعلنا نقول إن **الثقافة شكل من أشكال التعايش بين أفراد المجتمع الواحد، والتعايش شكل من أشكال الثقافة بين مجتمعات مختلفة. والتعايش استلهام للثقافة وللتراث الثقافي لمجتمع أو لعدة مجتمعات،** هو تعايش تشارك فيه كل المنتجات والقيم الثقافية هو مزج للقيم المشتركة.

4–تعايش ثقافي لا تعايش ديني: تأصيلات حول فكرة التعايش الثقافي

لأن التعايش الثقافي بدا، في عالم تسيطر عليه، كما يقول مالك بن نبي "ثقافة الإمبراطورية"[12]، عسيرا، ولأن التعصب الديني صار مظهرا للتواصل، وصار أكثر راديكالية وهيمنة في بعض الخطابات الثقافية، وحل محل التواصل الثقافي والتعايش السلمي الثقافي"فنحن في عالم مازال ملطخا بخطيئة الإستعمار إزاء أؤلئك المشغوفين بثقافة سيطرة، ولا يريدون أن يتيحوا للشعوب التي خرجت حديثا من ربقة الإستعمار، إمكانية تحقيق برنامج ثقافة ولا أن يحافظوا على لا ثقافتهم بكرا لا يمسها سوء." [13]، فقد طُرح حوار الأديان كبديل من أجل للتقارب بين الثقافات. لكن التساؤل الأساسي هو: هل مشكلة التعايش الثقافي هي مشكلة دينية أم مشكلة ثقافية؟

بالرغم من أن مالك بن نبي يجعل من الفكرة الدينية منطلقا جوهريا للتركيب الثقافي والحضاري، إلا أنه يقدم الفكرة الدينية في ثوب القيمة الثقافية، بإعتبارها قيمة ثقاقية متحققة في سلوك الأفراد، يقول مالك بن نبي في تحليله لتأثير الفكرة الدينية في تشكل الظاهرة الحضارية تاريخيا، إن التاريخ"يقرر: أن الحضارة تولد مرتين، أما المرة الأولى: فميلاد الفكرة الدينية، وأما الثانية: فهي تسجيل هذه الفكرة في الأنفس. أي دخولها في أحداث التاريخ."[14] ومن ثم فهو يتحدث عن المظهر الثقافي للفكرة الدينية، أي بعد تركيبها في النفوس، أي بتحولها إلى قيمة ثقافية وسلوكية يمكن تحديدها وقياسها في الواقع الإجتماعي والثقافي من حياة المجتمع ودرجة الفعالية المرتبطة بها كدافعية للسلوك، أو ما يسميه مالك بن نبي بالإطراد الحضاري لتلك الفكرة، ولقد شرح مالك بن نبي الإطراد الحضاري على النحو التالي: بإعتباره صورة زمنية للأفعال وردود الأفعال المتبادلة والتي تتولد منذ مطلع هذا الإطراد بين الفرد والفكرة الدينية التي تبتعث فيه الحركة والنشاط." [15] فنحن هنا أمام منطق قياس فاعلية ثقافية وإجتماعية مرتبطة بالأفراد لا أمام منطق قياس للفكرة الدينية مطلقةً. وهذا كفيل بإزالة اللبس على كثير من المفاهيم المتطرفة والخاطئة التي علقت بمفهوم حوار الأديان وبمفهوم التعصب الديني، فمضمون الحوار الديني أوالتعصب الديني هما مظهران ثقافيان للفهم الديني المرتبط بالقيم الدينية السماوية.

ولقد تناول مالك بن نبي في كتابه "الفكرة الأفروسيوية" هذه المسألة بالتحليل من خلال حديثه على إيجاد تعايش ثقافي بين عدة مجتمعات وثقافات من منطلق الافكرة الأفروسيوية داعيا إلى

ضرورة أن تتأسس على منهج " لا يكون في جوهره دينيا، حتى لا نخلع على الفكرة صفة(الكتلة) الدينية"[16] فنحن حتى وإن دعونا للتعايش بإسم القيم الدينية، فإننا نقوم بذلك من منطلق ثقافي، وبإسم الثقافة. لأن التعايش الثقافي، وفقا لنظرية الثقافة عند مالك بن نبي، هو مشكلة ثقافية وليس مشكلة دينية. فـ"إن الأديان لا يمكن أن تتنازل كيما تستغل وسائل لمثل هذه الغايات." [17] وعن المخاوف يقول"فإن صفتها الثنائية المستمدة من روحية الإسلام وتقاليد الهندوسية تنفي عنها ذلك الشيء الذي يسمى سيف العقيدة اللازم عندما يقتضي الأمر شن حرب صليبية أو حرب مقدسة والفكرة الأفرسيوية بهذه الصفة لا تحمل أي مطلقا أي خطر لحرب دينية."[18] وهذه الخاصية، كما يقول، "تحول بينها وبين أن تتبلور في كتلة صالحة لأن تستخدم في عمل من أعمال السيطرة، بل ستظل على العكس من ذلك تسمح بتدخل جميع تيارات الفكر، وتحمل رسالة الخلاص الغني بجميع العناصر الخلاقة، تلك العناصر التي يمكن انن تضعها فيها جميع التيارات المثرية في التجربة الإنسانية كلها."[19]

5- تأملات في واقع التعايش الثقافي: في سبيل ميلاد ثقافة عالمية جديدة

إننا لن نشهد تعايشا ثقافيا ما لم نشهد تركيبا ثقافيا جديدا، وما لم نشهد ميلاد ثقافة جديدة تقدم للإنسانية حلولا لمشكلاتها التي تعترض حوارها وتعايشها وتقدمها. فمن خلال رصده لواقع التعايش الثقافي على مستوى العلاقات الدولية والإنسانية يلاحظ مالك بن نبي أن الإنسانية لم تشهد بعد ميلاد ثقافة عالمية- إنسانية جديدة. وقد برزت الحاجة إلى ميلاد هذه الثقافة إبان وبعد الحربين العالميتين، وإن كانت الحرب مجرد مظهر من مظاهر إنحلال الحضارة. [20] فمن جهة شهد العالم محاولة للهيمنة من بعض الأمم التي تحظى بنوع من السطوة التكنولوجية والحضارية على امم وثقافات أخرى، كما شهد من جهة أخرى تعالي بعض الأصوات بمواجهة أشكال الهيمنة الثقافية التي قادتها الثقافة الغربية خاصة، ويؤرخ مالك بن نبي لميلاد هذا النوع من المواجهة أو محاولة التكتل الثقافي إن صح التعبير بإجتماع "باندونغ" الذي تمخض عنه من وجهة الثقافة فكرة ثقافية صالحة للتركيب الثقافي في سبيل التعايش الثقافي، وهو ما وصفه مالك بن نبي بـ"الفكرة الأفروسيوية" فلقد جمع تلك الدول مبدأ مقت الإستعمار، لكن بقدر ما وحد مبدأ مقت الإستعمار دول مؤتمر باندونغ "فإن هذه النزعة إذا ما صفي مضمونها من المشاعر الإيجابية عبر الزمن، فقد لا تدع فيها هذه التصفية سوى مشاعر سلبية تقوم على حقد الشعوب التي قاست ظلم طغاتها، بينما القضية ليست أن ننزع العالم من موجة احتقار الكبار لنسلمه إلى حقد الصغار."[21] ولقد حدد مالك بن نبي لفكرة التعايش في ظل فكرة الأفروسيوية المجال الأخلاقي كمنبع مشترك للثقافة الأسيوية والإفريقية، حيث يتغذى التركيب الثقافي والحضاري من مبدأين خلقي وجمالي."فالثقافة الأفروسيوية لا يمكنها لأسباب مختلفة أن تجد إلهامها الجوهري في مجرد نزعة معادية للإستعمار، تختفي باختفاء سببها وهو :الإستعمار، فيجب ان تبحث عن روحها الأخلاقي في مجموع من القيم الروحية والتاريخية التي تقرها الشعوب الأفرسيوية بوصفها نوعا من التراث"[22] مثل فكرة عدم العنف."وستجد الفكرة الأفرسيوية- بمقتضى إزدواجها الروحي-مبدأها الثاني في فكرة عدم العنف." [23]

ولكن فكرة التعايش الثقافي في ظل فكرة الأفرسيوية يظل مرهونا ببعض الشروط الحضارية والثقافية، ولقد حدد مالك بن نبي للثقافة الإفريقية بعض الشروط والمحددات للقيام بذلك التركيب الثقافي، وفي سبيل قيامها بالدور الحضاري والرسالة الحضارية المنوطة بها تاريخيا وحضاريا، والمهمة ملقاة على عاتق النخبة الإفريقية، يقول مالك"ومهمة النخبة الإفريقية إزاء ذلك أن تسهم في ترويضه على صلاحيته تلك بأقل الم ممكن، ولا شك فإن الذي يسهل قيامها بهذه المهمة أن تكون قد قامت بمهمتها الأولى، فبقدر ما ترتفع بالجماهير الإفريقية إلى مستوى الحضارة فإنها ترتفع بالضمير الأروبي إلى مستوى الإنسانية، لتضع أمامه صورة صحيحة الذي يعده الإستعمار شيئا تافها، فالمهمتان مترابطتان ونتائجهما النفسية والإجتماعية متلازمة، فكل ما سوف يحضر الرجل الإفريقي سوف يعطي للأروبي فكرة أصح عن العالم الإنساني." [24] يصاف إلى هذا مهمة ثالثة هي المشاركة في السلام العالمي"وحينما تكون قد خلصت الدول المتخضرة من الإستعمار، والشعوب المتخلفة من القابلية للإستعمار"[25] "ما ينبغي أن تقدمه لخدمة السلام هو الضمير.. وليس العلم."[26] فـ "إذا ما كتب للثقافة الإفريقية ان تواجه هذه المهام الثلاث... فإن من حقها على التاريخ أن تحظى لديه بلقب ثقافة كبرى، لأنها تكون حينئذ قد أسهمت في تشييد عصر إنساني شامل في العالم."[27] وما يعطي دفعا قويا لنظرية التعايش الثقافي كجزء من نظرية الثقافة عند مالك بن نبي، هو ان حديثه عن مساهمة الثقافة الإفريقية في التعايش الثقافي العالمي والمساهمة في ميلاد ثقافة عالمية جديدة، ليس حديثا عن واقع ثقافي إنما عن تركيب ثقافي ممكن كونه يستند إلى تراث إنساني ثري. وهذا التقارب يضرب بجذوره في أعماق التاريخ كوجود"علاقات تاريخية

بين مدنيات البحر المتوسط والأسيوية من جهة وبين إفريقيا من جهة اخرى ثانية." [28]

إن الفكرة الأفرسيوية أو فكرة التعايش تلتقي مع فكره حول فلسفة التاريخ أو منطق التاريخ أوضحها مالك بن نبي إنطلاقا من نقده لمضمون الحضارة الغربية القائمة المرتبطة بعقلية الغرب وبثقافته"والعقل الغربي وثيق الصلة بنظامه الثقافي"[29] ففي كتابة الفكرة الأفروسيوية يقوم بتحليل للنظام الغربي القائم على الهيمنة خلال القرن العشرين، وهو ما دفعه إلى التأكيد على أنه"إذا كانت عبقرية الغرب قد أنشات بنفسها أحد العناصر التي حتمت الإتجاه المنطلق للتاريخ، فلم تدعه يرجع إلى الوراء، فإن هذه العبقرية، قد برهنت على انها لا تستطيع أن تكفي نفسها بنفسها، وبرهنت الأحداث الدولية الحالية على عجزها الأخلاقي عن ان تحتل مكان القيادة في العالم. إذ لكي تتحمل أعباء هذه القيادة لا بد من سلطة أخلاقية، ودفعة روحية مما لا وجود له في هذه العبقرية الصناعية، ولا في مبادئها ولا في توجيهها." [30] وما يصل إلبه نتيجة لذلك هو أن التعايش ضرورة وإمكان من خلال إيجاد أسلوب من التواصل القائم على نوع من القيم المشتركة بين مجموعة من الثقافات"فالتعايش ضرورة، لأنه لا يوجد مخرج غيره من الزمن." [31] لقد ركز جارودي في كتابه"من أجل حوار حضاري" على مسألتين أساسيتين: الأولى، انه "حدثت في التاريخ لقاءات مختلفة بين الحضارات. وسيتيح لنا تأملها ان نعرّف تعريفا أفضل شروط إمكان لقاء جديد، ووسائل تسييره والإغناء الإنساني المرتقب به".[32] والثانية، ضرورة إنفتاح الحضارة الغربية على ثقافات الآخر، "وان حوار الحضارات هذا يساعدنا، بذلك على أن ننفتح في الصعيد الثقافي، على آفاق لا نهاية لها في المنظور الذي توحي به في جميع المجالات أحدث تجددات الثقافة الغربية." [33]

"إن المشكلة هي مشكلة إحداث تغيير جذري في الأنموذج الغربي لعلاقتنا مع الطبيعة بفضل حكمة الصين وإفريقيا والهند والإسلام، مشكلة إقامة توازن في مفهومنا ذي النزعة التقنية بالإفادة من تجربة حية، شعرية وصوفية، هي تجربة إتصالنا ومشاركتنا في طبيعة لا نملكهان بل تملكنا. وإن "حوار الحضارات" هذا ليؤلف مرحلة لازبة على الصعيد الإقتصادي في التساؤل الإنتقادي وفي التغيير الجذري لطرز تنميتنا وفي إكتشاف غائيات أخرى "للتنمية" ، وفي الوصول إلى تعريف آخر لمعنى التطور والنماء." [34] فمن الواضح، انه لا غنى عن التركيب الثقافي، او الرؤية الثقافية الكونية وهذا ما عبر عنه اشفيتزر بقوله"والواقع ان كل تقدم إنساني يتوقف على التقدم في نظريته في الكون. وعلى العكس نجد ان كل إنحلال سببه إنحلال مماثل في نظريته في الكون. وإفتقارنا إلى حضارة حقيقية مرجعه إلى إفتقارنا إلى نظرية في الكون. وحينما يتهيأ لنا الوصول إلى نظرية قوية ثمينة في الكون، نجد فيها إعتقادا قويا ثمينا، هنالك فقط يكون في وسعنا إيجاد حضارة جديدة ."[35] ومن الملاحظ، في مقابل هذا، إن السياسات الدولية في التنوع الثقافي أو التي ترعى وتحاول أن تؤطر هذا التنوع تبدو من خلال كتاب"أدويسا التعددية الثقافية" لويل كميليا، محدودة الآفاق. حيث" واجهت محاولات تدويل نزعة التعددية الثقافية وحقوق الأقليات حقل ألغام حقيقيا ممتلئا بخليط مضطرب من التصورات والمفاهيم والإحراجات الأخلاقية، والنتائج غير المقصودة، والتناقضات القانونية والتلاعبات السياسية".[36] لقد وعى كميليا، أن الإعتراف بحق الأقليات لا يكفي بل لا بد من إيجاد جو للتعايش حينما عبر عن ذلك بقوله" إننا نحتاج إلى البدء في التفكير في كيفية الإستجابة عندما تظهر التصدعات." [37]

لقد امد تبلور مفهوم الفكرة الأفرسيوية فكرة التعايش الثقافي بطاقات غنية وإغناءات كثيرة حيث كشف عن الإمكانات الحقيقية للتعايش ولفكرة التعايش الخاصة بالمجتمعات الإنسانية وهو شكل عنده قناعة راسخة بضرورة التعايش كمطلب إنساني وحضاري. "فهناك دائما وحدة في المشكلة الإنسانية تنبثق عن المصير المشترك، وهي من حيث كونها مجرد مفهوم ميتافيزيقي متفاوت في درجة وضوحه–كانت تجعل المؤرخ الذي يتجاهل هذا التصور للأشياء او يعارضه في موقف يمكنه ويحق له فيه ان يجهلها. ولكنها قد أصبحت واقعا ماديا، فوحدة التاريخ تتأكد في القرن العشرين بطريقة لا تدع مجالا للفكرة الكلاسيكية المألوفة، فكرة الوحدات التاريخية المستقلة، حيث تُفهم كل وحدة في حدودها."[38] كما أغنى تصوره لمشكلة الثقافة، يقول مالك بن نبي" كان قطعا من المفيد أن ننظر إلى مشكلة الثقافة من زاوية عالمية"[39]

كما أمد تبلور مفهوم الفكرة الأفرسيوية، أيضا، فكرة التعايش الثقافي بأشكال أخرى للتعايش، فإذا كان هدف الفكرة الأفرسيوية بالأمس القريب هي " التقريب بين مقاييس العالم الرأسمالي والعالم الشيوعي"[40] فإنها اليوم توحي بإمكانيات اكبر للتعايش. فكما أوحت لمالك بن نبي بفكرة **كمنويلث إسلامي** كما تحددت أليانه وجوهره في كتابه "فكرة كمنويلث إسلامي"، وبفكرة العالمية أو **التعايش العالمي** بين الثقافات الإنسانية المختلفة كشكل أوسع للتعايش الثقافي، والذي كانت فكرة الأفرسيوية مرحلة معينة من

مراحله[41]...، فإنها تفتح إمكانيات أكبر للتعايش الإنساني والثقافي أما المجتمع العالمي.

خاتمة:

على إمتداد معالجته لفكرة التعايش الثقافي كان مالك بن نبي يؤكد على فكرة جوهرية هي أن التعايش الثقافي **إمكان** لأنه **تركيب** ثقافي وحضاري، فهو ليس مرحلة تاريخية تحل وتمضي ولا تعود بل هو إمكان متجدد لوجود حضاري يمضي ويعود. وأن العالمية ليست "فكرة، أو مجرد رغبة، أو خيالا، أو مبدأ اخلاقيا، بل إنها تصريح لعصرنا، وغاية محتومة لتطورنا الراهن، وضرورة تفرضها الظروف الصناعية، والنفسية التي بلغها العالم."[42] ولعله من المفيد في الأخير الإشارة إلى انه، أيضا، وعلى إمتداد معالجته لفكرة التعايش الثقافي كان مالك بن نبي يستحث الدور الثقافي والحضاري الذي ينبغي أن يضطلع به الفرد المسلم والثقافة العربية الإسلامية عموما وهو الدور الذي كان يبرز من خلال الحديث عن التعايش الثقافي العالمي، وهو ما عبر عنه مالك بن نبي بقوله"إنما كنا نهدف من باب أولى إلى بيان أن الثقافة العربية الإسلامية يمكنها أن تقوم به، لأنها قد قامت به في الماضي فعلا...وبهذا فهي قادرة وجديرة بأن تنهض اليوم بدورها بصفتها ثقافة كبرى في العالم." (43)

الهوامش:

1- أنظر: مالك بن نبي، "مشكلة الثقافة"، دار الفكر، دمشق 1984، ص100

2- المصدر نفسه، ص91

** - الأزمة الثقافية: هي زوال الإلتزامات والقيود والإكراهات الإجتماعية(أنظر: مشكلة الثقافة، ص ص 90-91) ويترتب عن هذه الأزمة في"مآلها البعيد أفول حضارة وفي القريب زوال الإلتزام بين المجتمع والفرد ." (م.ن، ص 91) فالأزمة الثقافية تنمو وتنمو معها أيضا، نتائجها، من الحد الذي يمكن تداركه بالتعديل البسيط إلى الحد الذي يصبح فيه التعديل مستحيلا، أو لا يمكن إلا بثورة ثقافية عارمة تكون في الحقيقة بمثابة إنطلاقة جديدة للحياة الإجتماعية من نقطة الصفر." (المصدر نفسه، ص 91) وقد تدفع الأزمة إلى الإستسلام أو إلى الحركية والنهوض(أنظر المصدر نفسه،91))

3- المصدر نفسه،94

4- أنظر: مالك بن نبي، "مشكلة الثقافة، ص98

5- المصدر نفسه، ص 121

6- المصدر نفسه، ص 116

7- المصدر نفسه، ص 121

8- مالك بن نبي، "مشكلة الثقافة، ص 122

9- مالك بن نبي، "مشكلة الثقافة، ص 115

10- المصدر نفسه، ص ص 134- 135

11- مالك بن نبي، "مشكلة الثقافة، ص 138

12- المصدر نفسه، ص 126

13- المصدر نفسه، ص 137

14- مالك بن نبي، "شروط النهضة"، دار الفكر، دمشق 1985، ص55

15- المصدر نفسه، ص67

16- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 105

17- المصدر نفسه، ص 105

18- مالك بن نبي، الفكرة الأفروسيوية، ص 138

19- المصدر نفسه، ص 135

20- أنظر: اشفيتزر، "فلسفة الحضارة"، دار الأندلس، بيروت 1983، ص11

21- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 106

22- المصدر نفسه، ص 107

23- المصدر نفسه، ص 108

24- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 125

25- المصدر نفسه، ص 126

26- المصدر نفسه، ص 127

27- المصدر نفسه، ص 128

28- دنيس بولم، "الحضارات الإفريقية"دار الحياة، بيروت، ص139

29- مالك بن نبي، "فكرة الإفريقية الأسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ"، دار الفكر، دمشق2001، ص 43

30- المصدر نفسه، ص 42

31- المصدر نفسه، ص 181

32- جارودي، "حوار الحضارات"، منشورات عويدات، بيروت-باريس 1987، ص182

33- جارودي، "حوار الحضارات"، ص261

34- المرجع نفسه، ص260

35- اشفيتزر، فلسفة الحضارة، ص5

36- ويل كيميليا، أوديسا التعددية الثقافية، ج01، المجلس العلى للثقافة والفنون، الكويت 2011، ص23

37- المرجع نفسه، ج01، ص32

38- مالك بن نبي، "فكرة الإفريقية الأسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ"، ص201

39- مالك بن نبي، "مشكلة الثقافة"، ص 140

40- مالك بن نبي، "فكرة الإفريقية الأسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ"، ص 185

41- أنظر:المصدر نفسه، ص 133

42- الفكرة الأفروسيوية، ص 205

43- مشكلة الثقافة، ص 140